

مصر والأطماع الدولية في آسيا بين القرنين الخامس عشر والثالث عشر قبل الميلاد

د. شعلان كامل إسماعيل

قسم التاريخ / كلية التربية

جامعة الموصل

القبول

٢٠٠٣ / ٠٦ / ١٦

الاستلام

٢٠٠٣ / ٠٣ / ٠٨

ABSTRACT

It is known that the world dispute during the fifth and fourth centuries B.C basically took place in ancient Syria and its extending: in the Euphrates island towrds Iraq, for such a cite was the center of the interaction of the ancient cultures and the divergent interests of the different states and kingdams represented by extenuation and spreading out that resulted in the control over the larger possible lands antil world dispute became more fierce and more complicated.

ملخص البحث:

من المعروف أن النزاع الدولي خلال القرنين الخامس عشر والرابع عشر قبل الميلاد تركز في سوريا القديمة وامتدأدتها في منطقة الجزيرة الفراتية نحوى العراق كونها مركز احتكاك الحضارات القديمة والمصالح المتضاربة لمختلف دول المنطقة ولأهميتها الاقتصادية و العسكرية إلى جانب الطموحات السياسية للدول والممالك القائمة المتمثلة بالتوسع والانتشار، والتي استوجبت السيطرة على أكبر قدر ممكن من مساحة المنطقة حتى أصبحت النزاعات الدولية غاية في الضراوة والتعقيد.

تمهيد:

تعتبر منطقة الشرق الأدنى قلب العالم القديم كونها مصدر الحضارات البشرية الاولى حتى أصبحت المنطقة عموما مركز جذب للتجمعات السكانية من المناطق المجاورة مثل آسيا

الصغرى وبلاد عيلام وأرجاء أخرى مما أدى لتغيرات كبيرة في التركيب السكاني ومن جانب آخر فقد قدر للمجاميع الجديدة الوافدة للمنطقة أن تلعب دوراً فاعلاً في التاريخ السياسي والحضاري من خلال علاقاتها مع شعوب الشرق القديم من جهة ومع بعضها البعض من جهة أخرى . ويمكن القول أن الفترة التاريخية المقصودة في البحث (بين القرنين الخامس عشر والثالث عشر ق.م)

تعد من الفترات الصعبة التي مرت بها منطقة الشرق الأدنى القديم سياسياً وعسكرياً وذلك لتعدد القوى الدولية الجديدة وتشابك علاقاتها بشكل مثير أحياناً وغامض في أحيان أخرى بالإضافة إلى التسارع الكبير في ظهور قوى ثانوية وانتهاء قوى أخرى في خضم الصراعات الدولية وفق المصالح التي كانت سبب الخلاف أو الوفاق فكان البحث محاولة لتبيان الخطوط الأساسية والعامّة في تاريخ المنطقة والوقوف على بعض الحقائق التي أدت إلى أصل وطبيعة العلاقات الدولية والدبلوماسية والمتبادلة بين القوى السياسية المعنية وأولها مصر القديمة وتأثيرها على مستقبل الخارطة السياسية للمنطقة حتى نهاية الألف الثاني قبل الميلاد.

من المعلوم أن النزاع الدولي في مطلع القرن الخامس عشر قبل الميلاد تمركز في سوريا القديمة وإمداداتها في منطقة الجزيرة الفراتية نحو العراق كونها مركز احتكاك الحضارات القديمة والمصالح المتضاربة لمختلف الدول الحاكمة ولأهميتها الاقتصادية والعسكرية إلى جانب الطموحات السياسية للدول والممالك القائمة المتمثلة بالتوسع والانتشار، والتي أستوجبت السيطرة على أكبر قدر ممكن من مساحة المنطقة حتى أصبحت النزاعات الدولية غاية في الضراوة والتعقيد.

ومن الجدير بالذكر أن الخلافات الدولية والنزاعات المسلحة لها الدور الأهم في أقرار وتثبيت المصالح الدولية المتضاربة وحسب المرحلة أي أنها غير ثابتة ومن هنا كان دور الدبلوماسية بارزاً في تنظيم العلاقات بين القوى المتصارعة في المنطقة بالذات عندما تصبح العمليات العسكرية مستنفذة وغير ذي جدوى.

ومن المعروف أن صراع دول الشرق الأدنى الذي تمركز فيسوريا القديمة، إلى حد ما، أثر سلباً على تاريخ هذا البلد وبقائه مجزأً بين عدة دول وممالك خاضعة في كثير من الأوقات لقوى دولية مجاورة هي الأقوى ومتنازعة في ما بينها باستمرار، وكانت تجر بدورها الممالك السورية القديمة لمواقف سياسية معنية وفق إرادتها أو بدونها، إلى مهم أن تلبية متطلبات وتوافق مصالح القوى الكبرى المتنفذة في المنطقة.

ويتطرق البحث للدور الفاعل لمصر في صدّ التوسع والتوغل الميثاني والحثي إلى عمق الأراضي السورية سواء بالطرق العسكرية أو الدبلوماسية ومعرفة دور مصر في الصراعات الدولية في آسيا وحصرها في ما يعرف بمنطقة الشرق الأدنى القديم، الجزء الآسيوي منه فمصر

جزاً من المنطقة غير أنها تمثل الجزء الأفريقي من الشرق الأدنى القديم أما باقي دول وممالك المنطقة كلها كانت ضمن الجزء الآسيوي وعليه يمكن القول أن التدخل المصري في المنطقة يمثل الأطماع المصرية في آسيا.

ومن الجدير ذكره أن البحث تطرق وبشيء من الإسهاب إلى دور الآشوريين في هذا الصراع الدولي خلال القرنين الرابع عشر والثالث عشر قبل الميلاد.

ولابد من التعريف بأهم مصدر لا يمكن لأي باحث في تاريخ المنطقة القديم التغاضي عنه والمقصود به رسائل تل العمارنة نسبة إلى موقع العمارنة في مصر الذي أكتشفت فيه ، ويضم بقايا عاصمة الملك المصري أمنوفيس الرابع (أخناتون ١٣٦٧ - ١٣٥٠ ق.م) وتعد هذه الرسائل على درجة كبيرة من الأهمية في دراسة العلاقات الدولية بين دول وممالك الشرق الأدنى القديم، حيث تمثل جزءاً مهماً من المراسلات الملكية التي تبودلت بين الملوك الكاشيون (في بابل) والميتانيون وممالك سوريا وفلسطين والآشوريون والحيثيون بالإضافة إلى الملوك المصريين في القرن الرابع عشر ق.م. ولابد من الذكر أن جميع هذه الرسائل كتبت بالخط المسماري واللغة الأكادية واقتصرت مراسلات العمارنة بين هؤلاء الملوك على فترة لا تزيد عن (٥٠) سنة، والتي تمثل حكم كلا من الملكين المصريين أمنوفيس الثالث (١٤٠٥ - ١٣٦٧ ق.م) وابنه أموفيس الرابع (١).

محاور القوى السياسية:

ازدحم الشرق الأدنى القديم بمجموعة من الممالك والقوى المتصادمة في مطلع النصف الثاني من الألف الثاني قبل الميلاد بالإضافة إلى مجموعة أخرى من الدويلات والممالك الصغيرة التي تدور في فلك سياستها . ولابد من الوقوف والتعريف بأهم الدول التي لعبت دوراً بارزاً في مسيرة تاريخ المنطقة.

إلى جانب مصر في قارة أفريقيا التي تزعمت كل القوى السياسية هناك فإن باقي القوى الدولية الأخرى المعروفة والمشمولة بموضوع النزاع الدولي في الشرق الأدنى، خلال الفترة الواقعة بين القرنين الخامس عشر والثالث عشر قبل الميلاد ، كانت ضمن قارة آسيا . فهناك دولة الحيثيون (*) التي كان مركزها شرقي آسيا الصغرى (الأناضول) وقد قدم الحيثيون إلى المنطقة وأنشأوا دولتهم في حدود القرن الثامن عشر قبل الميلاد، ثم أخذوا في التوسع في فترة لاحقة حتى

(*) الحيثيون: أقوام هندو - أوربية قدمت من شواطئ بحر قزوين وأسقطت في سهل نهر قزل ارماق في القسم الشرقي من آسيا الصغرى وعاصمتهم حاتوشا أو حاتوشاش (بوغازي كوي) عاصمة لدولتهم التي استمرت حتى أواخر القرن الثالث عشر قبل الميلاد.

تمكن ملكهم مورشيلش الأول (١٥٩٥ - ١٥٦٠ ق.م) من غزو بلاد بابل وإنهاء حكم سلالة بابل الأولى (**). وفي منطقة الخابور (شمالي سوريا وأعلى ما بين النهرين) نشأت الدولة الميتانية (***) مطلع القرن السادس عشر قبل الميلاد واحتدمت مصالحها منذ قيامها بالمصالح الحثية شمالي سوريا وكذلك بالطموحات المصرية ومساعدتها في السيطرة على عموم سوريا القديمة. أما مصر فقد ركزت جهودها العسكرية خلال القرن السادس عشر قبل الميلاد على حماية حدودها الشمالية الشرقية بعد طرد الهكسوس (*). وبعد ذلك اتضحت سياسة مصر واطماعها في إيجاد منطقة نفوذ لها في سوريا، حتى أصبحت أكبر قوة سياسية وعسكرية في الصراع الدولي في آسيا (منطقة الشرق الأدنى القديم). وفي العراق كان الاشوريين قد أسسوا دولتهم شمالاً، في نزاع مستمر وعداء مع الدولة الميتانية والدولة الحثية حول مناطق النفوذ المهمة وتضارب المصالح والسياسات الخاصة لكل من دولهم. أما وسط وجنوب العراق فقد خضع لحكم الكشيين (**) الذين كان دورهم هامشياً في الصراعات الدولية الى حد ما، وذلك لما عرف عنهم بالتزامهم بسياسة الانغلاق والحياد وعدم التدخل في السياسات الدولية للمنطقة قدر المستطاع ما دام الخطر لا يمسهم وانحسر معظم نشاطهم العسكري تقريبا في النزاعات الحدودية مع الدولة الاشورية (٢) أما بلاد الشام فقد كانت مقسمة بين العديد من الدويلات والممالك الامورية (**) وهي الدولة التي أقامها الحوريون وهم أقوام لا يعرف أنتمائهم العرقي بشكل

(*) من المعروف أن مورشيلش انسحب فجأة من بابل عائدا الى بلاده تاركا الفرصة أمام الكشيين للسيطرة على بلاد بابل، حيث أقاموا السلالة الكشية (١٥٩٥ - ١١٥٩ ق.م)
(**) وهي الدولة التي أقامها الحوريون وهم أقوام لا يعرف أنتمائهم العرقي بشكل مؤكد. وتعرط لروحة ماجستير غير منشورة، بغداد (١٩٧٦)، ص ٤٠.

(*) حكم الهكسوس مصر فترة قرن ونصف أو أكثر بقليل، انتهت بطردهم من قبل الملك المصري "أحمس" عام ١٥٧٠ ق.م. ويصف القسم الأكبر من الباحثين الهكسوس على أنهم من الأقوام الهندو - أوروبية في حين هنالك فريق يصنفهم من الأقوام الجزرية.

أنظر: الغرب. محمد، هزيمة الهكسوس، مصر (١٩٦٧)، ص ٣٣ - ٣٤

(**) الكشيين: واسمهم مشتق من الكلمة "كشو" وأغلب الظن تعني القوة والشدة. وجاء الكشيين من أواسط سلسلة جبال زاجروس المعروفة اليوم بمنطقة "لورستان" وحكم منهم ٣٦ ملكا خلال الفترة المحصورة بين عامي (١٥٩٥ - ١١٦٢ ق.م). وقد تلقب الملوك الكشيين بلقب ملوك "كاردونياش" والذي يعني أغلب الظن ملوك بلاد بابل. وكانت أولى محاولاتهم في غزو بلاد بابل في عصر الملك البابلي "سمسو" ايلونا (١٧٤٩ - ١٧١٢ ق.م). ألا أنه ردهم وكرروا محاولتهم في عهد خليفته "أبي - ايشوخ". ومن الواضح أن الكشيين لم يتمكنوا من احتلال بابل إلا بعد غزو الحثيين لها وإنحبابهم منها عام ١٥٩٥ ق.م.

(**) من المعروف أن سوريا القديمة كانت خاضعة فعليا أو شكليا معظم الاوقات لممالك امورية طول فترة القرن الخامس عشر والرابع عشر حتى اواخر القرن الثالث عشر قبل الميلاد عندما بدأت الكفة تميل لصالح الاراميين الذين استولوا سوريا وبدأوا بتأسيس كياناتهم السياسية هناك. أنظر

CLEY.ALBERT, THE AMORITE EMPIRE, NEW HAVEN (1919), p.54

مؤكد . وتعرف دولتهم بثلاثة أسماء مترادفة : الدولة الميثانية أو الدولة الحورية (الخورية) أوخانيكالبات . وشملت الدولة الميثانية المنطقة الممتدة من بحيرة وان الى أواسط الفرات ومن زاجروس الى الساحل السوري . أنظر : فرحان . وليد محمد صالح ، العلاقات السياسية للدولة الاشورية، اطروحة ماجستير غير منشورة، بغداد (١٩٧٦)، ص ٤٠ والتي بدورها اختلفت مواقفها في علاقاتها السياسية مع دول المنطقة الكبرى بين التحالف مع إحداها، وهي تحالفات أقرب الى الخضوع بل هي خضوع فعلي وبين الحياد وانتهاز الفرص لتقوية مركزها وتحقيق استقلالها ومصالحها . وكانت هذه الممالك في كثير من الأوقات تقوم بادوار وتحركات سياسية بدل الدول الكبرى المتحالفة معها أو الخاضعة لسلطاتها مما جعلها في موقف مواجهة الاحداث باستمرار ، بالإضافة الى كون اراضيها مسرحا للصدمات بين الدول الكبرى سفي عموم المنطقة(٣).

عودة مصر الى الساحة الدولية:

نجح المصريون في تحرير بلادهم من سيطرة الهكسوس حوالي منتصف القرن السادس عشر ق . م، ونشأت فيها سلسلة ملكية جديدة تمثلت بالأسرة الثامنة عشر (١٥٧٥ - ١٣٢٠ ق.م). وبدأت مصر في نهج سياسة خارجية مختلفة عن سياسات عصورها القديمة، والتي تمثلت بالانعزال نوعا ما ويمكن القول أن احتلال الهكسوس لبلادهم دفعهم للانفتاح سياسيا، حيث أصبحت أولوياتهم في السياسة الخارجية حماية حدودهم الشمالية الشرقية والتي سبق أن دخل الهكسوس منها مصر، ولم يتوقف المصريون عند هذا الحد إنما بدأت محاللاتهم في الاندفاع نحو أسيا في عمق أراضي سوريا القديمة من أجل حماية بلادهم مستقبلا وتأمين طرق التجارة وتثبيت مصالحهم مع سوريا وفلسطين . وهكذا بدأت المحاولات المصرية جادة في إقامة مناطق نفوذ دائمة في سوريا وفلسطين سواء بالسيطرة المباشرة أو غير المباشرة (٤). ومن المنطقي أن محاولات المصريون في مد نفوذهم تجاه أسيا في فلسطين وسوريا أخلل بميزان القوى في عموم منطقة الشرق الأدنى واختلفت السياسات الخارجية ومواقف الدول في محاولة صد المصريين أو مساندتهم وفق المصالح المطروحة على الساحة الدولية وقتذاك.

يمكن القول أن الاطماع المصرية في سوريا القديمة بدأت تظهر من جديد في عهد الاسرة الثامنة عشر، حيث وجه امنوفيس الأول (*) (١٥٤٦ - ١٥٢٦ ق.م). حملة عسكرية الى شمالي سوريا واصطدمت بالقوات الميثانية التي تراجعت أمام الاندفاع المصري القوي واعقب امنوفيس الأول توحيتمس الأول (١٥٢٥ - ١٥١٢ ق.م). الذي أدام زخم الاندفاع العسكري ضد

(*) امنوفيس أو أمنحوتب فالاسمان مترادفان والمقصود بهما شخصية واحدة حيث اختلف الباحثون المعاصرون في قراءة الاسم من خلال النصوص المصرية القديمة.

الميتانيين في سوريا وحرز انتصارات متلاحقة حتى وصل مشارف الفرات قرب مملكة "يمخذ (حلب اليوم) (٥). ونجح المصريون في تحقيق نفوذ لهم في سوريا بعد تلك الانتصارات، وكما يذكر العديد من الباحثين أن الحظ حالفهم في عدم وجود قوة ت مكنت من صدهم، فالميتانيون لم يمتلكوا القوة العسكرية الكافية لصد القوات المصرية بسبب انشغالهم المستمر في حروب متواترة ضد الحثيين، والحثيون من جانبهم كانوا في خضم سلسلة من النزاعات الداخلية على العرش عقب اغتيال "مورشيلش" عام (١٥٦٠ ق.م) بالإضافة إلى حروبهم الدائمة ضد الميتانيين على حدودهم الجنوبية. وفي العراق كان الاشوريين يمرون بفترة ضعف وتدهور سياسي أما الكشيون في بلاد بابل كانوا منشغلين بتنشيط حكمهم الجديد فيها إضافة لما عرف عنهم بعدم الضلوع كثيرا في السياسة الخارجية والاحداث الدولية ما دام الخطر بعيدا عنهم. توقفت الفعاليات العسكرية المصرية في سوريا في عهد "توحتمس الثاني" والملكة "حتشبسوت" أي الفترة بين عامي (١٥١٢ - ١٤٨٢ ق.م). بسبب النزاعات الداخلية على العرش إضافة الى نشوب تمردات في بلاد النوبة ضد السيطرة المصرية (٦) وكانت النتيجة ضعف النفوذ المصري في بلاد الشام وإتاحة الفرصة أمام الدويلات المحلية للتحدي ضد الوجود المصري في بلادهم. وعلى الاغلب كان للميتانيون الدور البارز في إثارة الدويلات والممالك المحلية وجعلها إحدى الوسائل لضرب المصريين ومع بداية حكم "توحتمس الثالث" (١٤٨٢ - ١٤٥٠ ق.م). كانت المعارضة في بلاد الشام ضد الوجود المصري قد تبلورت وأصبحت ثورة عارمة بزعامة حاكم دويلة "قادش" (تل النبي حاليا) على ضفاف نهر العاصي (٧) حيث تمكن من توسيع دولته الى مدينة "مجدو" (تل المتسلم حاليا) على سواحل البحر المتوسط، والتي تعتبر مركزا إستراتيجيا يسيطر على أحد الطرق التجارية المهمة بين مصر وسوريا وتحكمها في المدخل الشمالي المؤدي الى وسط سوريا إضافة إلى سيطرتها بشكل أو بآخر على الطريق التجاري بين سوريا والعراق (٨) وجعل حاكم "قادش" من "مجدو" مركزا للمعارضة ضد مصر ولا يخفى دور الميتانيون في مساندة ودعم حاكم قادش في تمرده. ونتيجة له ذا الموقف الحساس والخطر الذي واجهه المصريون تحرك توحتمس الثالث عام ١٤٨١ ق.م. لضرب ثورة دويلة قادش وحكامها واستعادة النفوذ السابق. ورغم النجاح العسكري الذي حققه توحتمس الثالث في حملته حيث أسترجع فلسطين والعديد من مناطق بلاد الشام الا أنه فشل في أخضاع قادش ألا بعد اثني عشر سنة من تاريخ حملته (٩). والجدير ذكره أن توحتمس الثالث والى جانب حملته العسكرية بدأ يتبع اسلوب الترضية والود مع الملوك المحليين محاولا ايجاد حلفاء له في بلاد الشام بالطرق السلمية والدبلوماسية موقنا أن الحفاظ على مصالح مصر عن طريق التحالفات وا لعلاقات السلمية اجدى من اسلوب السيطرة المباشرة بالاحتلال والقوة العسكرية (١٠). وعلى الرغم من كل الجهد العسكري والحملات التي قادها أو ارسلها توحتمس الثالث نحوى بلاد الشام. غير أن الثورات والتمردات استمرت ضد المصريين

ويبدو أنه ارتأ في القضاء على هذه التمردات إرسال حملة عسكرية كبيرة لضرب الدولة الميتانية كونها المحرض التي تهدد مصالح المصريين وكل طموحاتهم في بلاد الشام فقادته بنفسه حملة عسكرية كبيرة عام ١٤٧٠ ق.م. لهذه الغاية غير أنه لم يحقق نصرا عسكريا حاسما ضد الدولة الميتانية (١١) لكنه وضع الاسفين الأول في نعشها وان لم يكن فعلى الأقل حجم الدولة الميتانية وجعلها عاجزة أمام الوجود المصري في بلاد الشام . بالاضافة لجعله مصر إحدى القوى الدولية الكبرى في المنطقة أن لم تكن أكبرهما الى جانب تأمين مصالح مصر التجارية مع عموم بلاد الشام. ونتيجة لهذا الموقف الدولي الجديد والانجازات التي حققها توحتمس الثالث لمصر سارعت العديد من دول المنطقة الى التقرب منه لكسب صداقته حيث اصبح الرجل القوي الذي يجنبهم خطر الدولة الميتانية التي هيمنت على عموم المنطقة من قبل، فأرسل الملوك الاشوريون والكشيون والحثيون بهداياهم الى توحتمس الثالث رغبة م نهم في التحالف معه ضد الدولة الميتانية (١٢) ويبدو أن الاشوريين وقعوا ضحية التقارب مع مصر، حيث قام الميتانيون باخضاع الدولة الاشورية والسيطرة عليها من دون الدولة الكشية والدولة الحثية ربما بسبب موقع بلاد آشور القريب من بلاد الشام والدولة الميتانية بالاضافة الى ادراكهم على الاغلب عدم خطورة الدولة الكشية وعدم رغبتها في التوسع والتدخل في شؤون المنطقة (١٣).

وجه توحتمس الثالث أربع حملات عسكرية نحو بلاد الشام غير أنه فشل في القضاء نهائيا على ثورات وتمردات الدويلات المحلية فيها التي كانت تطمح الى الاستقلال والتحرر . وفي بداية حكم امنوفس الثاني (١٤٥٠-١٤٢٥ ق.م). خليفة توحتمس الثالث تجددت الثورات والتمردات ولأجل إظهار قوته وسيطرته أرسل امنوفس الثاني حملتين الى شمال سوريا مؤكدا للامراء السوريين أنه لازال ممسكا بزمام الأمور في بلادهم ويبدو أنه حقق أهدافه من هاتين الحملتين حيث عم الهدوء لصالح المصريين لما تبقى من حكمه (١٤). الى جانب التغيرات التي حدثت في القوى الدولية للمنطقة والتي كان لها دورا كبيرا في عودة السلام الى بلاد الشام، حيث ظهر الحثيون مجددا كقوة مناوئة للميتانيون في بلاد الشام منذ أواخر حكم توحتمس الثالث حتى أنهم تمكنوا من السيطرة على بعض الدويلات شمالي سوريا وطرد الميتانيين منها، والجدير بالذكر أن الحثيين بعد تحقيقهم هذه الانتصارات على الدولة الميتانية بادروا بإرسال الهدايا الى توحتمس الثالث (١٥) كحركة دبلوماسية الغاية منها التودد للمصريين وإظهار حسن النية وإشعارهم بعدم الخوف على مصالحهم في بلاد الشام الى جانب رغبتهم، أي الحثيون التحالف مع مصر من أجل محاصرة الدولة الميتانية، فالحثيون من الشمال والشرق والمصريون من الجنوب . وفيما يبدو أن الملوك الميتانيين ادركوا حقيقة مخاطر التقارب الحثي المصري الذي يعني في حالة حصوله وضعهم وسط قوتين تعملان على إنهاء دولتهم فسارعوا الى قطع مساعداتهم وتحريضهم للدويلات المحلية في بلاد الشام ضد مصر كبادرة طيبة وبداية لعلاقات

صداقة بين الطرفين وإرسال بعثة دبلوماسية إلى امنوفس الثاني لتهنئته بالعرش ومفاتيحه لا قامة تحالف بين الدولتين (١٦). ويبدو أن الميتانيين نجحوا هذه المرة في ضرب السياسة الحثية وابعادهم عن مصر بالطرق الدبلوماسية، حيث ارتأى امنوفس الثاني إقامة علاقات الصداقة والتحالف مع الميتانيون (١٧). وجعلهم حاجزا أمام أطماع الدولة الحثية في بلاد الشام بالإضافة إلى أن الدولة الميتانية كانت على تماس مباشر مع المصريين في المنطقة والتحالف معهم سيوقف التمردات والثورات المحلية ضدهم وبالنتيجة تأمين مصالحهم (المصريين) دون الحاجة إلى استخدام الجيوش وما تتطلبه من نفقات اقتصادية تثقل كاهلهم. ويبدو أن التقارب الميتاني المصري منح بلاد الشام الهدوء والسلام ولتقوية العلاقات بين البلدين تمت المصاهرات السياسية، حيث تزوج توحتمس الرابع (١٤٢٥-١٤١٧ ق.م). من أبنه الملك "ارتاتاما الأول" وتزوج "امنوفس الثالث" (١٤١٧-١٣٧٩ ق.م). من أبنه شوترنا الثاني (١٨). ويمكن القول أن المصريين اظهروا ميلا نحو سياسة السلم وإقامة علاقات الصداقة ليس مع الميتانيين فحسب حيث أرسل امنوفس الثالث إلى الملك الكشي "بورنابورياش الأول" خاطبا أبنته للزواج الأمر الذي أسعده كثيرا، حيث سيضمن صداقة أقوى دولة في المنطقة إلى جانب المنافع المادية المتوقعة من الملك المصري وتحديد الذهب حيث كانت مصر أهم مصادره (١٩). وبالإضافة للكشيون ورغبة من امنوفس الثالث في توسيع شبكة العلاقات الدولية الودية لمصر نلاحظ أنه أرسل إلى الملك الأشوري "أشور-نادن أخي" وفدا للتباحث وإقامة علاقات مع هدية عبارة عن كمية من الذهب (٢٠).

بعد وفاة الملك الميتاني شوترنا الثاني حدثت مشا كل بسبب النزاع على العرش انعكس سلبا على علاقاتهم مع مصر واتسمت بالبرود بل وأصبحت شبه مقطوعة حتى أعتلى العرش الميتاني "توشرتا" حوالي عام (١٣٨٥ ق.م). الذي حرص على إعادة العلاقات مع مصر إلى سابق عهدها فأرسل وفدا يحمل رسالة إلى امنوفس الثالث مذكرا إياه بتلك العلاقات والأواصر التي جمعت الطرفين قبل وقت قصير ومن ناحيته فقد رحب امنوفس الثالث بهذا التطور الإيجابي الذي ينطبق مع سياسته في إقامة علاقات طيبة مع دول المنطقة، وتأييدا منه لتقوية الصلات مع "توشرتا" فقد تزوج أبنته بعد زواجه من أخته في فترة سابقة (٢١).

خلال حكم توشرتا حدثت تطورات غيرت كثيرا من الوضع السياسي لمنطقة الشرق الأدنى، حيث ظهر الحثيون كقوة كبيرة في المنطقة من جديد في عهد الملك "شيلولوما" (١٣٨٠-١٣٤٠ ق.م). الذي تمكن من استعادة قوة الدولة الحثية ومكانتها وحدثت أعتلائه العرش الحثي اختلالا في موازين القوى السياسية للمنطقة لصالح الحثيين. فقد تمكن من السيطرة على شمال سوريا والسيطرة على أرجاء واسعة من مناطق الدولة الميتانية (٢٢). ونتيجة لهذا الموقف فقد سارع العديد من الأمراء السوريين إلى إعلان ولائهم وخضوعهم للدولية الحثية.

ويبدو أن شيبيلوليوما حرص على عدم إثارة مصر في الوقت الذي ضرب حليفهم (الدولة الميتانية) أثناء توسعه في سوريا حيث بادر إلى إرسال الهدايا إلى الملك المصري "امنوفس الرابع" (اخناتون) معبرا عن رغبته في إقامة علاقات طيبة (٢٣) كحركة دبلوماسية لامتناس غضب وقلق المصريين على مصالحهم ونفوذهم في بلاد الشام ربما لكسب الوقت حتى لا يواجه دولتين في آن واحد . أن المكاسب التي حصل عليها شيبيلوليوما في شمال سوريا على حساب الدولتين الميتانية والمصرية كانت بسبب تنامي قوة الدولة الحثية وبالمقابل ضعف الدولة الميتانية ودخولها في سلسلة من المؤامرات والصراعات بين أفراد الطبقة الحاكمة من أجل السيطرة على العرش (٢٤). أما مصر المعنية كثيرا بشأن سوريا فأن ملكها "امنوفس الرابع" بدأ وكأن الأمر لا يهمه حيث كان منشغلا باصلاحاته الدينية ولم يعر الجانب الدولي والسياسي للمنطقة شيئا يذكره، بل وحتى في عهد حكم والده "امنوفس الثالث" الذي عرف عنه الطبيعة السلمية عموما وعدم استخدام القوة وبناء علاقات دولية عن طريق المصاهرات السياسية والعلاقات الودية، وعلى الاغلب أن سياسة امنوفس الثالث وابنه امنوفس الرابع أدت إلى ضعف سيطرة وهيمنة المصريين في بلاد الشام . أن قوة الحثيون وضعف الميتانيين وترأخي المصريين أوجدت مرحلة جديدة من مراحل التوسع الحثي في سوريا إلى جانب التغير في طبيعة العلاقات الدولية والخرطة السياسية فأن أول رد فعل دولي تمثل في أنقسام الدويلات المحلية في بلاد الشام تجاه الحثيون، القوة العائدة من جديد بين موالى لهم أو مستمرا في ولائه للمصريين والميتانيين وعدم الاستكانة للتغير في مراكز القوى (٢٥).

أن الوضع الدولي الجديد بظهور الدولة الحثية وتنامي قوتها وضعف الدولة الميتانية ومصر وتراجعها في بلاد الشام أعطى الفرصة لقوى سياسية أخرى في الظهور والتنافس مع قوى قديمة بل التغلب عليها من أجل السيطرة على مناطق النفوذ. حيث ظهرت الدولة الاشورية، ومنذ عهد الملك الاشوري "أشور - اربلط الأول" (١٣٦٥ - ١٣٣٠ ق.م). الذي أستفاد من الوضع الدولي الجديد، والمتمثل تحديدا في ضعف الدولة الميتانية والتخلص من سيطرتها ليصبح بعد ذلك كواحد من ملوك الدول القوية في المنطقة. ويبدو ذلك واضحا من خلال الرسالة التي بعث بها إلى امنوفس الرابع والتي نقرأ في نصها.

"إلى نفخوريا (اخناتون) الملك العظيم ملك مصر أخي قل هكذا

يقول أشور أوبلظ ملك بلاد أشور الملك العظيم أخوك..." (٢٦)

ويتضح من الرسالة المكانة العالية التي وصل أشور أوبلظ في أعتباره ملك مصر أخا له وما تحمله هذه الكلمة من دبلوماسية في ذلك الوقت كالمساوات في المنزلة السياسية والعلاقة المتكافئة التي تربط بين الملوك والدول المتناجزة.

ويبدو أن رسالة اشور اوبلط الى أخناتون كانت مزعجة جدا للملك الكشي "بورنابورباش الثاني" (١٣٧٥-١٣٤٧ ق.م). الذي بادر بدوره وراسل اخناتون معبرا عن استيائه من التقارب الاشوري المصري، حيث نقرأ في نص الرسالة.

"... أما ما يخص الرسل الاشوريين من اتباعي أقلم اخبرك برسالتي بشأنهم،

فلم دخلوا بلادك؟ وبما أنك تحبني فيقيني أنك لن تدخل معهم في شيء

(من التحالف) وانك ستعمل على أحباط مساعيهم وجهودهم..." (٢٧).

ويتضح من الرسالة محاولة الملك الكشي عزل الاشوريين عن مصر واطهارهم مظهر

التابعين للدولة الكشية، غير أن الرسالة بمدلولها العام تبين المكانة الكبيرة التي وصلها

الاشوريون على الساحة الدولية وقلق الملك الكشي من تنامي المركز الدولي للاشوريين في عموم الشرق الأدنى القديم.

وبعيدا عن موقف مصر وعلاقاتها الدولية في المنطقة لابد من التطرق لتطورات الاحداث،

في مطلع النصف الثاني من القرن الرابع عشر قبل الميلاد، وتأثيراتها على العلاقات الدولية المستقبلية لمصر وعموم بلدان المنطقة . ففي الوقت الذي بدت فيه العلاقات الاشورية الميتانية ،

في عهد الملك الميتاني "ارتاتاما الثاني" (بعد فترة الاحتلال والسيطرة الميتانية على الدولة

الاشورية) علاقات عداء الا أن ارتاتاما الثاني أعترف بالدولة الاشورية دولة مستقلة، وربما كان

موقفه هذا لكسب ود الاشوريين كقوة في المنطقة الى جانبه بعد أن انتزع العرش الميتاني من

"متي كورتي" صاحبه الشرعي الذي التجأ الى الملك الحثي "شيبوليوما"، بل ويمكن القول أن

ارتاتاما الثاني كان على استعداد للتحالف مع الاشوريين على الرغم من عدائها السابق ليتمكن

من التصدي للحثيون، الذين اصبحوا قوة كبيرة في منطقة الشرق الأدنى ومن جهة أخرى كان

طبيعيا أن ينقلب "شيبوليوما" الذي كان حليفا لـ "ارتاتاما الثاني" في موقفه ويحتضن "متي كورتي"

ويقدم له المساعدة في سبيل استعادة عرشه للقضاء على ارتاتاما الثاني الذي اتخذ موقف

الصديق من الاشوريين، في محاولة م نه لكسب حلفاء لمقارعة الحثيون، وبالمقابل فأن

"شيبوليوما" كان يسعى لإيجاد دولة صديقة سوريا خاضعة بشكل أو بآخر للدولة الحثية . وفي

ذات الوقت فأن الكشيين في بلاد بابل لم يكن لهم دور فعلي في مسيرة العلاقات الدولية وذلك

لميلهم لسياسة التعايش السلمي واتخاذ مواقف الحياد قدر الامكان . ويمكن اعتبار رسالة ارملة

"توت- عنخ- آمون" الى شيبوليوما طالبة الزواج من أحد أبنائه دليلا واضحا على هيمنة الدولة

الحثية ونفوذها الواسع في بلاد الشام وعموم المنطقة ومن جانب آخر تعبر الرسالة عن مدى

تراجع النفوذ المصري ويبدو أن المصريين ي قنوا بالهيمنة الحثية فكان طلب الملكة لهذا الزواج

على الرغم من عدم أتمامه ربما حركة دبلوماسية لمصاهرة أكبر قوة دولية في المنطقة، ونقرأ في

نص الرسالة المذكورة ما نصه.

"....توفي زوجي وليس لي أبن. ويقول الناس أن لك أبناء كثيرين

أذ أرسل لي أحد أبنائك فإنه سيصبح زوجي. أني أكره أن أختار

أحد الخدم وأجعل منه زوجا لي..."(٢٩).

أعقب "شيلوليوما" على عرش الدولة الحثية ابنه "ارنوداش الثالث" وأعقبه بعد ما يقارب العام أخوه "مورشليش الثاني" وساد الشرق الأدنى فترة من الهدوء النسبي فمصر كانت تمر بمرحلة من الضعف وبلاد آشور منشغلة بمشاكلها الحدودية مع الكشيون في بلاد بابل أما الدولة الميتانية كانت قد فقدت مكانتها السياسية المؤثرة في سير العلاقات الدولية واستمر هدوء المنطقة الى أواخر القرن الرابع عشر قبل الميلاد حتى بدأت مصر في عهد سلالتها التاسعة عشر بمحاولاتها توسيع مناطق نفوذها ومصالحها في آسيا، تحديدا في بلاد الشام، ونشبت المصادمات بين مصر والدولة الحثية من جديد وذلك عندما تقدم الملك المصري "سيتي الأول" (١٣٢٠-١٣٠٤ ق.م). بجيشه وسيطرة على سواحل البحر المتوسط الممتدة في أراضي فلسطين ولبنان(٣٠).

ويبدو أن "سيتي الأول" أكتفى بهذا القدر من بلاد الشام ولم يرغب في مواجهة شاملة مع الحثيون اللذين تفاجئوا على الاغلب بالتقدم المصري نحو حدودهم الجنوبية ويمكن القول أن "سيتي الأول" نجح في إعادة مصر ثانية الى مسرح الاحداث السياسية وفاعليتها في مجرى العلاقات الدولية للمنطقة . وفي عهد "رعمسيس الثاني" (١٣٠٤-١٢٣٨ ق.م). اقدم المصريون على تجديد النزاع مع الدولة الحثية حيث تقدم هذا الملك نحو منطقة العاصي ولم تستمر الصدامات بين الطرفين طويلا أذ عقدت بينهم معاهدة سلام في العام ١٢٨٤ ق.م. تعهد خلالها الطرفين بعدم مهاجمة الطرف الآخر بل والدفاع عنه في حالة تعرضه لهجوم من طرف ثالث، وجاء في نص المعاهدة:

"...أذا زحف عدو آخر ضد بلاد رعمسيس حاكم مصر العظيم

وارسل الى ملك خاتي (الحثيون) العظيم قائلا: "تعال معي

كمساعد ضده" وإذا لم يذهب خاتو شيليش شخصا (فأنه)

يتوجب عليه عندئذ أن يرسل مشاته وعرباته..."(٣١).

وبعد ذلك فقرة مماثلة لصالح الحثيون. ونصت المعاهدة أيضا على تسليم الهاربين بين الطرفين . أن المعاهدة المصرية الحثية يمكن اعتبارها أكمل معاهدة سلام قديمة عقدت بين دولتين وإن لم تكن أقدم معاهدة . ويبدو أن ظروف الدولتين دفعتهما لتوقيع معاهدة السلام تلك فالدولة الحثية باتت تعاني من خطر تدفق هجرات شعوب بحر ايجة نحو آسيا الصغرى وسواحل البحر المتوسط، واللذين اسهموا في القضاء على الدولة الحثية في اواخر القرن الثالث عشر قبل الميلاد، غير أن تنامي خطر الدولة الاشورية وتهديدها للحثيين السبب الأهم في التقارب الحثي

المصري حتى يتفرغ الحثيون لصددهم . اما مصر كانت هي الأخرى تواجه خطر تحرك القبائل الليبية على حدودها الغربية الى جانب قلقها من تعاظم قوة الاشوريين وبالتالي اختلال توازن القوى الدولي في المنطقة . وهكذا أصبحت مصالح كلا من المصريين والحثيين تقتضي تناسي خلافاتهم بل التحالف من أجل درء الاخطار المشتركة التي تهددهم.

أن الطموحات المصرية في آسيا بعد معاهدة السلام مع الحثيون وما جرى في المنطقة من أحداث متمثلا بسقوط الدولة الحثية على يد الفريجيون وظهور الدولة الاشورية كقوة كبرى الى جانب ظهور الاراميون واستقراهم وإنشائهم الدول والممالك في بلاد الشام، كل تلك التطورات جعلت التأثيرات المصرية وقوتها تتكشمش في المنطقة واقتصرت في معظم الاوقات على التحريض السياسي والمساندة المالية والعسكرية بالسلاح والعدد دون الجيوش للمالك الارامية من أجل حماية مصالحها الاقتصادية وصد خطر المد الاشوري.

الخاتمة:

من المعروف أن مصر تعتبر من كبرى دول الشرق الأدنى خلال تاريخ المنطقة القديم . وفي الفترة المحصورة بين القرنين ١٥ و ١٣ قبل الميلاد استغل ملوك مصر غياب قوى سياسية كبرى في عموم آسيا وتحديدًا الجهات الغربية من القارة في الوقت الذي تسيدوا فيه معظم القارة الأفريقية، فكانت الظروف سانحة أمامهم للتوسع والامتداد في غرب آسيا تأمينًا لمصالحهم الاقتصادية الواسعة في عموم بلاد الشام وفلسطين الى جانب رغبة ملوكهم بالتوسع وضم اكبر قدر ممكن من الأراضي والشعوب تحت سلطتهم . وقد نجح المصريون في تحقيق أهدافهم وتمكنوا لفترات طويلة بين القرنين ١٥ و ١٣ قبل الميلاد من السيطرة والهيمنة على معظم أرجاء بلاد الشام . ويمكن القول أن نجاح المصريين لم يكن عن طريق القوة العسكرية فقط حيث انهم استطاعوا بناء شبكة واسعة من العلاقات الدولية شملت معظم دول المنطقة وبأسلوب مرن ومتغير حسب ظروف وتنامي قوى تلك الدول أو ضعفها.

وليس في بلاد الشام فقط فباستمرار كان المصريين يتمتعون بعلاقات ودية مع الكشيون في بلاد بابل وحاولوا أن يحافظوا على علاقات هادئة ودبلوماسية الى حد ما مع الاشوريين شمال بلاد بابل.

أما الميتانيون ومع أنهم من القوى الكبرى في المنطقة وحتى منتصف القرن الرابع عشر قبل الميلاد غير أنهم فشلوا في إيقاف المد المصري في بلاد الشام . فحدثت بينهم مصادمات وحروب حتى انقلبت تلك العلاقات العدائية بين الطرفين وأصبحت علاقة صداقة وود تخللتها العديد من المعاهدات السياسية بين الطرفين وذلك بعد أيقان الميتانيون أن لا جدوى من معاداة المصريين. بالإضافة الى بداية ضعف الدولة الميتانية وتراجعها أمام القوى الناهضة في المنطقة

واهمها الدولة الحثية والدولة الاشورية وهكذا أخذت الدولة الحثية على عاتقها محاربة المصريين وصدهم في بلاد الشام وما تخلل ذلك من علاقات دولية شائكة ومتقلبة بين الحثيون والميتانيون والاشوريون والكشيون والمصريون . وفي نهاية المطاف وبعد مواجهات عسكرية عديدة أقبل الحثيون والمصريون، بعد اقتناعهم بعدم امكانية احراز النصر لاحد الطرفين على الآخر على توقيع معاهدة سلام عام (١٢٨٤ ق.م). انتهت العداء فيما بينهم والى الأبد . أما الاشوريون فقد ظلوا خلال فترة التوسع المصري في المنطقة، وبعد تخلصهم من السيطرة الميتانية، داخل حدود العراق القديم وضمن بلاد آشور آنذاك وذلك لعدم أملاكهم القوة الكافية لمواجهة المصريين أو الحثيين.

ويمكن القول أن الدولة الاشورية كانت في مرحلة البناء والنهوض الذي سيؤولها لدور كبير لتاريخ منطقة الشرق الأدنى القديم وإعادة رسم الخارطة السياسية، وذلك خلال العصر الاشوري الحديث (٩١١ - ٦١٢ ق.م). أما الكشيون فكانوا طوال فترة تواجدهم السياسي في بلاد بابل ميالين للسلام أكثر منه للحرب والتوسع واتبعوا أسلوب الحياد في كل المنازعات والحروب التي حصلت في المنطقة الى جانب محافظتهم على علاقات صداقة مع المصريين كونهم القوى الكبرى الالهة وما سيطرت عن مصادقتهم من فوائد.

وبعد استعراض أهم الأحداث التي وقعت في بلاد الشام وعموم غرب آسيا يمكن القول أن المصريين ومالهم من دور فعال في سير تلك الأحداث أنهم نجحوا في تحقيق اهدافهم باتباع سياسة ذكية واقامة شبكة من العلاقات الدولية المرنة والمتغيرة مع معظم قوى المنطقة . ونجحوا كما يقال في مسك العصى من الوسط بين السياسة والقوة كوسيلتين في تحقيق أطماعهم ومصالحهم في غرب آسيا خلال الفترة بين القرنين الخامس عشر والثالث عشر قبل الميلاد.

قائمة المصادر والهوامش:

- (١) نجيب. أبراهيم خليل، مصر والشرق الأدنى القديم، ج ٢، القاهرة (١٩٦٢)، ص ١٩.
- (2) Brikeman. J. A, "Political History of Post Kassite" AN.OR, val. XXXX III, Roma (1968), P.243
- (3) Cley. Albert, the Amorite Empire, New Haven (1919), P.59
- (٤) يويوت. جان، مصر الفرعونية، باريس (١٩٦١)، ترجمه. سعد زهران، القاهرة (١٩٦٦)، ص ١١٥.
- (5) Gardeniars. A, Egypt of the Pharaoh, London (1961), P.97.
- (٦) عبد العزيز. صالح، الشرق الأدنى القديم، ج ١، القاهرة (١٩٦٧)، ص ١٦٧.
- (٧) يويوت. جان، المصدر السابق، ص ١١٩.
- (٨) نجيب. ابراهيم خليل، المصدر السابق، ص ٦٩.

- (٩) حتي. فيليب، تاريخ سوريا ولبنان وفلسطين، بيروت (١٩٥٨)، ص ١٤٣.
- (١٠) نجيب. ابراهيم خليل، المصدر السابق، ص ١٥٢.
- 11) Breasted. J.A, Ancient Records of Egypt, vol.II Chicago (1927), P. 53
- (١٢) نجيب. ابراهيم خليل، المصدر السابق، ص ١٥٦.
- 13) Unsted. R. J.and Forman. W, The Assyrians. London (1980), P.174.
- 14) I lid, 179.
- (١٥) مورتكات. انطون، تاريخ الشرق الأدنى القديم ، باريس (١٩٦٤)، ترجمة توفيق سليمان وآخرون، دمشق (١٩٦٧)، ص ١١٨ - ١١٩.
- 16) Gurney. O.R, the Hittites Begininig, London (1972), P. 37.
- 17) I lid, P. 38.
- 18) Gelb. J, Hurrians and subarians Chicago (1944), P. 79.
- 19) Sayce. A. H, "letters to Egypt from Babylania and. Assyrians and Syria in the fifteenth Century B. C.,RP, vol. III, London (1991), P. 60.
- 20) I lid, P. 62.
- (٢١) فرحان. وليد محمد صالح، العلاقات السياسية للدولة الاشورية، أطروحة ماجستير غير منشورة، بغداد (١٩٧٦)، ص ٤٥ - ٤٦
- 22) Guterhocl, H. G, "the Deeds of Suppiluiums", JCS, val. X, New Haven (1958),P. 19
- 23) Gurney. O.R, OP. Cit. P. 48
- (٢٤) ساكز. هاري، عظمة بابل، لندن (١٩٦٦)، ترجمة. عامر سليمان، موصل (١٩٧٩)، ص ٩٧
- (٢٥) حتي. فيليب، المصدر السابق، ص ٧٩ - ٨٠
- 26) Knudtzon. J.A, Die AL – Amarna Taffeln, Lepzig (1910), PP.126-130.
- 27) Bezold. C, the tell – EL – Amarna Tablets in the Brutish Museum, London (1899),
- حول ترجمة نص الرسالة كاملة أنظر: PP. XXX- XXXI
- 28) Gurney.O.R,Op.CIT,P.48
- 29) Pritchard. J. B, Relating to The Old Testament, ANET, London (1969), p.319
- (٣٠) حتي. فيليب، المصدر السابق، ص ١٨٠
- 31) Pritchard. J.B,op.CIT,p.329.